القضاء والقدر

الدكتور عبد العزيز الخياط

القائم باعمال عميد كلية الشريعة / الجامعة الاردنية

مقــدمة

البحث في موضوعات العقائد في اسلوب بعيد عن سفسطة الجدليين ،وتجرد الفلاسفة وطريقة اهل البدع والاهواء ، أمر يوجبه الشرع ويستدعيه العقل ، لا سيما وقد اجتاح المثقفين في خضم المتاهات من التيارات الفكرية المعاصرة ، أمواج عاتية من الشك والالحاد والانكار واطلاق القول في ذات الله وصفاته ، وفي النبوات واليوم الآخر ، وفي معنى القضاء ومعنى القدر ، من غير دليل يعتمد ، ولا برهان يحتج به ، وانما هو الهوى المتبع ، والتقليد المضل ، كما اجتاح المثقفين من المسلمين في صدر الاسلام وايام دولتي الامويين والعباسيين ، سيل جارف من الفلسفات المنحرفة ، والآراء الضالة والتيارات الفكرية المناقضة للاسلام ، ادخلت زيغاً في العقائد ، وفسادا في تصورها ، وتضليلا في تفسيرها ، وقد اعتمدوا علم الكلام اسلوبا لعرض آرائهم ، مما نفر المسلمين الاوائل في علم الكلام ، وقد اعتمد على بعض القضايا الفلسفية والمنطق ، فقد روى عن الامام الشافعي فيما اخرجه الهروى في كتاب ذم الكلام بسنده عن الشافعي قال « حكمي في اهل الكلام حكم عمر في صبيغ » (١) وفي رواية انه قال « حكمي في اهل الكلام ان يضربوا بالجريـــد والنعال ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل . ويقال « هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، واقبل على كلام أهل البدعة » (٢) ، وقد روي عن ابي يوسف انه قال لبشر المريسي « العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم » . (٣)

---

(١) صون المنطق والكلا م للسيوطي / ١٨

(٢) شرح منلا علي القاري على الفقه الاكبر / ٤

(٣) المصدر السابق /٤

وقد ذكر علماء الاحناف في الفتاوى انه لو أوصى لعلماء بلده لا يدخل المتكلمون ، ولو اوصى انسان بوقف كتبه ما هو منها من كتب العلم فقد افتى علماء السلف انه يباع ما فيها من كتب الكلام ، وقد حرم السيوطي علوم الفلسفة كالمنطق ، وصرح بذلك ابن الصلاح (١) . والنووي والحافظ والقزويني ونقل ان الغزالي رجع الى تحريم الاشتغال بالكلام بعد الثناء عليه (٢) ، والى التحريم ذهب الشافعي واحمد بن حنبل وسفيان وجميع اهل الحديث ، وقد كانوا يفرون من الدخول في المناقشات الكلامية المتعلقة بالعقيدة خشية الوقوع في الكفر ، ويرون ان العلم لا يطلب بعلم الكلام ، ويلتزمون ما ورد عن الصحابة وهم اعرف بالحقائق ويعتبرون البحث في العقائد بحثا فلسفيا عميقا عن طريق علم الكلام تنطعا داخلا في قوله صلى الله عليه وسلم « هلك المتنطعون » (٣) ، والحق ان النهي والتحريم محمول على استعمال علم الكلام في البدع والاهواء والخروج عن جادة الحق ، وقلب الحقائق والتعصب والعداوة ، أما في استعمال البرهان والفعل وتناول مصطلحات جديدة لم يتناولها السلف ، والمجادلة للوصول الى الحق ، فهذا أمر محمود ، نهجه القرآن ، ولجأ اليه السلف ، قال تعالى « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ١١ / البقرة ، وقال « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينه » ٤٢ / الانفال ، وقال » قل فلله الحجة البالغة » ٤٩ / الاعراف ، وقد ذكر الله محاجة ابراهيم مع الكفار ، ومجادلة نوح مع ربه ، وجادل الله سبحانه الكفار وحجهم واتى بالبراهين الدالة على وجوده ووحدانيته تعليما لنا وارشادا الى استعمال الحجة ، قال تعالى في التوحيد « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ٢٢ / الانبياء ، وقال في النبوة « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » ٢٣ / البقرة ، وقال في البعث « قل يحييها الذي أنشأها اول مرة » ٧٩ / يس ، وطلب الى رسوله الجدال بالحسنى ، « وجادلهم بالتي هي أحسن » ١٢ / النحل ، وكانت الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم ، وكان الصحابة يجادلون المنكرين ويحاجونهم بقدر ما تدعو اليه الحاجة ، بعث علي بن ابي طالب رضي الله عنه ابن عباس رضي الله عنهما الى الخوارج فكلمهم فقال « ما تنقمون على امامكم ؟ قالوا : قاتل ولم يسب ولم يغنم » فقال « ذلك في قتال الكفار ، أرأيتم لو سبيت عائشة رضي الله عنها في يوم الجمل فوقعت عائشة في سهم

---

(١) فتاوى ابن الصلاح /٣ ؛ طبع القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ .

(٢) ذكر ذلك السيوطي في ترجمته لنفسه وانه الف كتابا سماه « القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق وانظر شرح منلا علي على الفقه الاكبر /٤

(٣) رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود .

احدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي امكم في نص الكتاب « فقالوا لا » فرجع منهم الى الطاعة الفان بمجادلته لهم .

وروي ان الحسن ناظر قدريا ، فرجع عن القدر ، وناظر علي كرم الله وجهه رجلا من القدرية ، وناظر عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، يزيد بن عميرة في الايمان ، قال عبدالله لو قلت اني مؤمن لقلت اني في الجنة فقال « يزيد بن عميرة » يا صاحب رسول الله ، هذه زلة منك ، وهل الايمان الا ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ، ولنا ذنوب لو نعلم انها تغفر لنا لعلمنا اننا من اهل الجنة . فمن اجل ذلك نقول اننا مؤمنون ولا نقول انا من اهل الجنة » فقال عبدالله بن مسعود « صدقت والله انها مني زلة »

ومن هنا ندرك ان من ذم الكلام انما ذمه اذا اتخذ وسيلـــة للتعصب في الدين وافساد عقائد المبتدئين والتوريط في أودية الضلال بتزيين الآراء الفلسفية المناقضة للدين(١)

وقد خاف العلماء في العقائد واستعملوا علم الكلام والمنطق في اقامة الادلة والبراهين على وجود الله سبحانه ،وعلى نبوة الانبياء ورسالاتهم واثبات العقائد بما لا يخرج عن مدلول الكتاب والسنة واجماع العدول ،وسموا ذلك (علم التوحيد) وهو العلم الذي يقتدر به على اثبات العقائد الدينية المكتسبة من ادلتها اليقينية (٢) ، وهو أمر يستدعيه اختـــلاف الناس في الامكنة والازمنة المختلفة مما يؤدي الى وجوب اقناع الناس بالادلة المختلفة والاساليب المتعددة ، وهذا هو ما يستدعي عند البحث في القضاء والقدر ان نلجأ الى اسلوب الاقناع بالبرهان ، والاثبات بالحجة مستشهدين في ذلك بالادلة السمعية والعقلية ، ولا يذم اللجوء الى ذلك ما دامت الغاية من استعمال الكلام شريفة والنية خالصة باستعمال المنطق لتوضيح جانب من عقيدة الاسلام .

وموضوع القضاء والقدر موضوع تناوله العلماء ،وخاض فيه اصحاب المذاهب ، فكان لاهل السنة والمعتزلة والقدرية والجبرية وغيرهم آراء مختلفة ، واتخذه جهلاء المسلمين اليوم ، مطعنا يهاجمون به الاسلام ، وينسبون اليه تقصيرهم في العمل ، وتقاعسهم عن السعي ، وتفريطهم

---

(١) اشرف المقاصد للمكناسي في شرح المقاصد للتفتازاني /١٧ المطبعة الخيرية بالقاهرة

(٢) حاشية الشيخ محمد نجيب المطيعي على خريدة التوحيد للدردير /١٢ طبعة مصر سنة ١٣١٤ .

في امجادهم، وتضييعهم لمكان قوتهم، وما ذلك الا من تأثر المسلمين في الايام النحسات، التي سيطر فيها الفكر الغربي والحضارة الغربية على عقول كثير من المسلمين فانبهروا بما عندهم، ووقفوا حياله اما متأثرين مضبوعين بما جاء به، او مدافعين يلجئهم الدفاع الى تحميل الاسلام نظريات ومبادىء وافكارا ليست من الاسلام، او جامدين اقعدهم الجمود عن الفهم، وابعدهم عن البحث وقد افلس اولئك الذين تأثروا بالفكر الغربي وحضارته التي هي وجهة نظره عن الحياة، وظهر افلاسهم في ميادين الفكر والحكم، كما وضح ان الدفاع عن الاسلام بالباسه نظريات تتناقض في اصلها مع عقيدته ومجاذبة معاني القرآن حتى تخرج عن حدودها لتتفق مع الفكر الغربي امر يشوه وجه الاسلام النقي، ووضح ان الاسلام اصيل في نظرته للكون والانسان والحياة يتميز بعقيدته ونظمه وقيمه وحضارته، وقد تبين ان الجمود لا يقل ضررا عن التحليل، وان القعود عن البحث وتجلية الفكر الاسلامي، وبيان روعته هو الطريق الامثل للمسلمين لتتبين لهم الطريق، ويقيموا نهضتهم المقبلة على اساس من ذلك، وقد بات مستقرا في نفوس المسلمين حتى اليقين ان المستقبل للاسلام، وان انقاذ الارض من العدوان الاستعماري والصهيوني، لا يتم بأية عقيدة غير عقيدة الاسلام، او مذهب من الايديولوجيات التي اخذت دورها في عالمنا الاسلامي، وظهر افلاسها، ومن يعش ير، ومهما طال ليل الجمود والضعف فالفجر لا بد ان يطلع .

القضاء والقدر :

موضوع القضاء والقدر، موضوع حساس وعر المسالك، خاض فيه العلماء واكثروا، فضل منهم من ضل واهتدى من اهتدى، ولم يكن المسلمون في صدر الاسلام يخوضون في بحث القدر، كما لم يكونوا يستعملون كلمتي القضاء والقدر، بل كانوا يفهمون القضاء بمعنى القدر، ويتوسعون في فهم كلمة القدر، دون ان يقحموا الفاظ الفلسفة والكلام .

وكانوا اذا تجادلوا في القدر ينهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقد اخرج شيخ الاسلام ابو اسماعيل الهروي من طريق عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على اصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر، فخرج مغضبا حتى وقف عليهم فقال : يا قوم بهذا ضلت الامم قبلكم باختلافهم على انبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض وان القرآن لم ينزل لنضرب بعضه ببعض ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضا

ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به (١)، واخرج عن ابي هريرة : قال : خرج علينا رسول الله (ص) ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه ، وقال : ابهذا امرتم ام بهذا ارسلت اليكم انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الامر ،عزمت عليكم ان لا تنازعوا (٢). وظل المسلمون يتجنبون الجدل في القدر وفي الآيات المتشابهة ، ويعاقب خلفاؤهم من يفعل ذلك فقد روى الدارمي في مسنده عن سليمان بن يسار ان رجلا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل اليه عمر وقد اعد له عراجين النخل فقال : من انت ؟ قال انا عبدالله بن صبيغ . فأخذ عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى دمي رأسه ، ثم تركه حتى برىء ثم عاد له ثم تركه حتى برىء فدعا به ليعود فقال : ان كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلا فأذن به الى ارضه ، وكتب الى ابي موسى الاشعري انلا يجالسه احد من المسلمين (٣).

فلما استقر المسلمون بعد الفتوح واتصلوا بالفلسفة واصحاب الاهواء بدأ منهم من يأخذ بآراء الفلاسفة في القدر ، وينقل مذهب افلاطون في نسبة الشر الى الجهل وان الاله لايصدر عنه الا الخير وان الشر من تقدير الله ، ومذهب ارسطو في انعزال الله (العقل الاول) عن جزئيات الافعال لانه الكامل المطلق الذي لا يحتاج الى شيء غير ذاته فلا يريد ولا يفكر في شيء ولا يتحرك بعد ان خلق الكون لانه لو تحرك لازم ان نبحث عن سبب حركته ، فليس عنده قدر وانما ترك الانسان حرا في اختيار افعاله ، ويردد مذهب الثنوية والزنادقة والابيقورية والرواقية وغيرها في الجبر والاختيار .

ورد في سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ان اول من تكلم بالقدر رجل من اهل العراق كان نصرانيا يسمى « سوسن » فاسلم ثم تنصر واخذ عنه معبد الجهني وغيلان الدمشقي ، وتكلم معبد في القدر وقدم المدينة فافسد بها ناسا ، وفعل مثله غيلان بن يونس فقال بأن القدر خيره وشره من العبد ، وجرت بينه وبين الامام الاوزاعي مناظرات عند هشام بن عبد الملك ، وانتهت حياتها بالقتل (٤) .

---

(١) صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام للسيوطي /٣٥ نشر سامي النشار الطبعة الاولى بمصر .

(٢) المصدر السابق /٣٥ .

(٣) صون المنطق للسيوطي /١٧ وصبيغ كأمير هو ابن عسيل كان يعنت الناس بالغوا مض(كما في القاموس المحيط (وقد بقي في البصرة يتحاشاه الناس كأنه بعير اجرب عزمة امير المؤمنين. كما روى ذلك ابن عساكر

(٤) انظر الكامل لابن الاثير ١٨٩/٤ وتاريخ الطبري ٢٨٥/٨ وسرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباته المصري /٢٠١ الطبعة الرابعة للحلبي سنة ١٣٢١ هـ

وانتشر عنهما القول بالقدر وسموا القدرية بمعنى انهم ينسبون القدر الى الانسان : وفي مقابلهم كان جهم بن صفوان يقول بان الانسان مجبور لااختيار له ولا قدرة وانه لايستطيع ان يعمل غير ما عمل وان الله قدر عليه اعمالا لابد ان تصدر منه ، وكان من اهل خراسان ونشأت فرقة الجهمية نسبة له ، ثم فشا بعد ذلك الخوض في القدر ، ونشأت فرقة المعتزلة بدأ بواصل بن عطاء ، وجاء ابو الحسن الاشعري بالاشعرية وابومنصور الماتريدي بالماتريدية وفشت الفرق ونشأ علم الكلام ، والفت الكتب ، واستعمل لفظ القضاء بمعنى القدر ، وقال الناس بالقضاء والقدر على انهما مثلا زمان .

١ ـ القضاء في الكتاب والسنة :

وردت كلمة قضى ، والقضاء في القرآن بمعان مختلفة لغوية وشرعية ويهمنا ان نسجل معاني مانسب الله سبحانه وتعالى فيها الفعل على نفسه فتأتي معانيها كما يلي : ـ

أ ـ بمعنى : اتمام الامر وابرامه قولا او فعلا :

قال تعالى : « واذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون » ١١٨/ البقرة .

وقال : « ليقضي الله امرا كان مفعولا ٤٢/ الانفال » اي ليبرم امرا كان مفعولا وهو نصر المؤمنين .

وقال « وكان امرا مقضيا » اي مبرما .

ب ـ بمعنى قدر وكتب :

قال تعالى « هو الذي خلقكم من طين ثم قضى اجلا » ٢/ الانعام اي قدر وكتب له اجلا (١) ، وقال « فيمسك التي قضى عليها الموت » اى قدر وكتب عليها الموت .

ج ـ تأتي بمعنى خلق وصير قال تعالى :

« فقضاهن سبع سموات في يومين » ٢/ فصلت ، اي صيرهن وخلقهن خلقا ابداعيا ومعنى القضاء هنا ايجاد المقدر (٢) ، ومثله قوله تعالى « فلما قضينا عليه الموت » ١٤/سبأ .

---

(١) تفسير الالوسي ٢/٢٨ ؛ وحاشية الجمل ٢/٤

(٢) مجموعة التوحيد لمحمد بن عبدالوهاب . الرسالة الاولى /٥٧

د — بمعنى اوحى وأعلم وأخبر : قال تعالى :

«وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين» اي اوحينا (١) وقال تعالى « وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » اي اوحينا . (٢) .

هـ — بمعنى امر ووصى (وقيل بمعنى حكم او الزم.)

قال تعالى « وقضى ربك ان لاتعبدوا الا اياه » ٢٣/ الاسراء اي امر ربك(٣).

و — بمعنى الزم تقول : قضى القاضي بمعنى الزم. قال تعالى« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم » ٣٦ / الاحزاب وقال« كان على ربك حتما مقضيا » ٧١ / مريم اي محتوما حتما لازما .

ويتضح من استعمال كلمة قضى والفاعل فيها رب العالمين ان فيها معنى ابرام الامــر وامضائه ، وحتمية هذا الامر من الله والزامه ، وانفاذ قدر الله عز وجل واخراج الامر من العدم الى حد الفعل وانها قد استعملت في القرآن بهذا المعنى ، وهو الوارد في حديث ان النبي صلى الله عليه وسلم مر بكهف مائـــل الى السقوط فأسرع المشي حتى جاوزه فقيل « اتفر من قضاء الله تعالى فقال « أفر من قضائه تعالى الى قدره » (٤).

كما وردت بهذا المعنى في حديث تعوذ النبي صلى الله عليه وسلم من سوء القضاء فعن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال« تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الاعداء » (٥) .

وفي حديث مسلم عن ابي الاسود الديلي قال ، قال لي عمـــران بن حصين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه اشيء قضي عليهم ومضى من قدر ماسبق او فيما يستقبلون به ما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم فقلت « بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم ».

---

(١) حاشية الجمل ٢/٦١٤

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ٢/٦٢١ .

(٣) حاشية الجمل ٢/٥٥١

(٤) تفسير الالوسي /٣٠٠ وشرح القسطلاني على البخاري ١١/١٩٦ .

(٥) رواه البخاري في باب القدر .

قال « فقال » افلا يكون ظلما « قال » ففزعت من ذلك فزعا شديداً ، وقلت كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون « فقال لي » يرحمك الله ، اني لم ارد بما سألتك الا لأحزر عقلك ، ان رجلين من مزينة اتيا رسول الله صلى عليه وسلم فقالا : يارسول الله أرايت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، اشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق او فيما يستقبلون به مما اتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم فقال » لا « بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم ، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل « ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها» .

٢ — القدر في الكتاب والسنة :

القدر (بفتح القاف والدال) في اللغه يأتي بمعان مختلفة ، فالقدر القضاء الموفق يقال قدر الاله كذا تقديرا قضاه ، واذا وافق الشيء الشيء قلت : جاء قدره ، والقدر (بتسكين الدال(وفتح القاف) القضاء والحكم وهو ما يقدره الله سبحانه في القضاء ويحكم بـه من الامور قال هدبة بن خشرم :

الا يا لقومي للنوائب والقدر ... وللامر يأتي المرء من حيث لايدري

وقدر الله عليه ذلك يقدره قدرا وقدرا (بتسكين الدال وفتحها) وقدره عليه وله قضاه قال الشاعر :

من اي يومي من الموت افرّ ... أيوم لم يُقدر ام يوم قُدر

وتأتي قدر بمعنى علم ، وتأتي بمعنى قسم الرزق ، وتأتي بمعنى ضيق ، ودبر الامر ويأتي القدر بمعنى الطاقة ، وتأتي بمعنى مبلغ الشيء ، وتأتي بمعنى عد واحصى ، وتأتي بمعنى فكر وغير ذلك من المعاني اللغوية .(١) .

وقد وردت في القرآن الكريم وفي السنة النبوية بهذه المعاني كلها ، ونحصرها فيما يلي ذاكرين في آخرها المعنى الذي يتناسب مع المعنى الاصطلاحي للقدر ، وهو الـذي يتصل ببحث القضاء والقدر :

---

(١) راجع لسان العرب لابن منظور ٦/٨٦٥ وما بعدها ، والقاموس المحيط للفيروزبادي ٢/١١٤ .

١) وردت في القرآن بمعنى ضيق ، قال تعالى « فقدر عليه رزقه » ١٦/ الفجر وقال « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ٢٨/ الرعد وقال « ويكأن الله يبسط الرزق لمــن يشاء من عباده ويقدر » ٨٢/ القصص ، وقال « ومن قدر عليه رزقه » ٧/ الطلاق ، وكلها بمعنى التضييق . وقال تعالى « وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقــدر عليه » ٨٧/ الانبياء ، فمن معاني ان لن نقدر عليه ، ان لن نضيق عليــه بأن نجعله في بطن الحوت ، اذ يستبعد ان تكون نقدر من القدره اذ من المحال على النبي ان يعتقد بعدم استطاعة رب العالمين لتنافي ذلك مع النبوة .

٢) بمعنى قسم ، قال تعالى « وقدر فيها اقواتها » ١٠/ فصلت اي قسم أرزاقها .

٣) وردت بمعنى احصى ، قال تعالى « وقدرنا فيها السير » ١٨ / الاسراء احصيناه ، وقال عن القمر « وقدره منازل » ٥/ يونس « والقمر قدرناه منازل » ٣٩/ يس ، اي احصى سيره ، وقال « والله يقدر الليل والنهار » ٢٠ / المزمل اي يحصيهما . ومنــه الحديث « اذا غم عليكم هلال شعبان فاقدروا له » اي احصوا عدة الشهر ثلاثين يوما.

٤) وردت كلمة القدر بمعنى الميقات ، قال تعالى « قد جعل الله لكل شيء قدرا » ٣/ الطلاق ، اي ميقاتا . وقال « ثم جئت على قدر يا موسى » / ٤٠ طه اي على ميقات وموعد .

٥) وترد القدر بمعنى الطاقة ، قال تعالى « ومتعوهن على الموسع قدره ، وعــلى المقتر قدره » ٢٣٦ / البقرة أي طاقته .

٦) وترد بمعنى المقدار ، قال تعالى « وانزلنا من السماء ماء بقدر » ١٨ / المؤمنون وقال « فسالت اودية بقدرها » ١٩ / الرعد ، وقال «فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم» « ٢١ ، ٢٢ المرسلات اي مقدار .

٧) ترد بمعنى التعظيم والمعرفة ، قال تعالى « وما قدروا الله حق قدره » ٩١/ الانعام اي ما عظموا الله حق تعظيمه ، او ما عرفوه حق معرفته . وقال تعالى « ما قدروا الله حق قدره » ٧٤/ الحج اي ما عرفوه حق معرفته انه لقوي عزيز .

٨) ترد بمعنى علم ، قال تعالى « الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين »٦٠/ الحجر اي علمنا انها من الهالكين .

٩) تأتي بمعنى سوى قال تعالى « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » ٢/ الفرقان أي فسواه تسويــة .

١٠) ترد بمعنى هيأ ، قال تعالى « قوارير من فضة قدروها تقديرا » اي هيأوها .

١١) ترد بمعنى جعل (وقدرنا فيها السير) اي (جعلنا) على تفسير (١) .

١٢) ترد بمعنى فكر ، قال تعالى « انه فكر وقدر » ١٨/ المدثر اي ردد فكره تبعا لهواه ، وهذه المعاني كلها وردت في القرآن منسوبة الى الله سبحانه وتعالى فهي معان لغوية تدخل في باب قدرة الله عز وجل وتقديره واما ورود القدر في القرآن بمعنى القضاء المبرم ، او بمعنى جعل الخصائص الطبائع في الاشياء فقد وردت كما يلي :

١) بمعنى القضاء الحكم والامر المبرم في قوله تعالى « وكان امر الله قدرا مقدورا » ٣٨/ الاحزاب ،اي قضاء مقضياً وقوله « انا انزلناه في ليلة القدر » ١/القدر ، أي القضاء والحكم . وقوله سبحانه «فالتقى الماء على امر قد قدر» ١٢/ القمر ، أي قد قضي به وقوله « نحن قدرنا بينكم الموت » ٦٠/ الواقعة اي قضينا ، وفي قوله « خلقه فقدره » ١٩/ عبس اي قضى عليه . (٢) .

٢) بمعنى جعل الخصائص والطبائع والقابليات في الاشياء في قوله تعالى « والذي قـــدر فهدى » اي اوقع تقديره في اجناس الاشياء وانواعهـــا واشخاصها ومقاديرها وصفاتها وافعالها وآجالها وغير ذلك من احوالها فجعل البطش لليد ، والمشي للرجل ، والسمع للاذن ، والبصر للعين ونحو ذلك . ومعنى هدى اي ارشد الانسان ودله لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة . (٣) .

---

(١) انظر حاشية الجمل على تفسير الجلالين في اجزائه الاربعة تفاسير هذه الآيات كلهـــا مركز لك تفسير الالوسي وابن كثير .

(٢) انظر تفسير الالوسي وحاشية الجمل على الجلالين

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٤/٥٢٠

وفي قوله تعالى « انا كل شيء خلقناه بقدر » ٤٩/ القمر أي قضاء وحكم وقياس مضبوط، وقسمة محدودة وقوة بالغة وتدبير محكم في وقت معلوم ومكان محدود مكتوب في اللوح المحفوظ، وانه خلقها على صفات مخصوصة. (١)، ورأي الالوسي انها بمعنى القضاء لا التقدير (٢).

ويتضح من هذا ان كلمة القدر وردت في القرآن بمعنى القضاء والحكم وبمعنى تقدير الصفات في الاشياء وقد وردت السنة بهذين المعنيين فقد روى مسلم وغيره من حديث جبريل حين سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال عليه السلام « الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» وروى أبو داود عن الوليد بن عبادة قال « دخلت على عبادة وهو مريض اتخايل فيه الموت فقلت « يا ابتاه اوصني واجتهد لي » قال « اجلسوني » ثم قال « يا بني انك لن تجد طعم الايمان، ولن تبلغ حقيقة العلم حتى تؤمن بالقدر خيره وشره» قلت يا ابتاه وكيف اعلم ما خير القدر وشره ؟ قال « ان تعلم ان ما اخطأك لم يكن ليصيبك وان ما اصابك لم يكن ليخطئك، يا بني : اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان اول ما خلق الله القلم، فقال له : اكتب القدر ما كان وما هو كائن الى الابد » يا بني ان مت ولست على ذلك دخلت النار (٣) وعن جابر بن عبد الله قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم ان ما اصابه لم يكن ليخطئه وان ما أخطأه لم يكن ليصيبه » (٤). وعن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « احتج آدم وموسى، فقال موسى « يا آدم انت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه اغويت الناس واخرجتهم من الجنة، فقال آدم « وانت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، أفتلومني على امر قدر علي قبل ان اخلق » وفي رواية الترمذي « افتلومني على عمل عملته كتبه الله علي قبل ان يخلق السموات والارض، قال فحجج آدم موسى » (٥)، وروى الترمذي عن علي بن ابي طالب قال : قال

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٢٥١/٤ .

(٢) تفسير الالوسي ٨٤/٢٨ .

(٣) رواه الترمذي عن عطاء ٣١٩/٨ شرح ابن العربي المالكي على صحيح الترمذي المطبعة المصرية بالقاهرة

(٤) رواه الترمذي في باب القدر .

(٥) رواه الترمذي .

رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن احدحتى يؤمن بأربع : يشهد ان لا اله الا الله واني محمد رسول الله ويؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر » (١) . وعن طاووس اليماني قال سمعت ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » (٢) . اي بقضاء من الله سبحانه خلقه على صفة من الصفات او جعل فيه خاصية من الخواص .

وروي ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول « أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ »فقال « هي من قدر الله » (٣) وروي عن عائشة ان رسول الله (ﷺ) لعن ستة احدهم المكذب بقدر الله . (٤) .

وعن ابي هريرة قال « جاء مشركو قريش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاصمون في القدر ، فنزلت هذه الآية يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، انا كل شيء خلقناه بقدر » .

وقد اخرج الطبراني قوله عليه السلام « أخاف على أمتي من بعدي ثلاثاً : حيف الامة وايماناً بالنجوم ، وتكذيباً بالقدر (٥) » ، أي القضاء .

وعن عبدالله بن عباس ان عمر بن الخطاب خرج الى الشام حتى اذا كان بسرع (٦) لقيه أمراء الأجناد ابو عبيدة بن الجراح واصحابه فأخبروه ان الوباء قد وقع بأرض الشام قال ابن عباس ، فقال عمر بن الخطاب : أدع لي المهاجرين الاولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم ان الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا ، فقال بعضهم « قد خرجت لأمر ولا نرى ان ترجع عنه » وقال بعضهم « معك بقية الناس ، وأصحاب رسول الله ﷺ لا نرى ان تقدمهم على هذا الوباء » فقال عمر « ارتفعوا عني » ثم قال « أدع لي الأنصار » فدعوهم

---

(١) رواه الترمذي ٨/٣٤٣ شرح ابن العربي المالكي .
(٢) رواه الامام احمد بن حنبل وانظر تفسير ابن كثير ٤/٢٦٨ .
(٣) رواه الترمذي .
(٤) رواه الترمذي ٨/٣١٨ شرح ابن العربي .
(٥) اخرجه ابن عساكر عن ابي محجن
(٦) قرية بوادي تبوك

فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم ، فقال « ارتفعوا عني » ثم قال « أدع لي من كان هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح » فدعوهم فلم يختلف عليه منهم رجلان ، فقالوا « نرى ان ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء » فنادى عمر في الناس اني مصبح على ظهر فاصبحوا عليه ، فقال ابو عبيدة : أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر « لو غيرك قالها يا ابا عبيدة . نعم نفر من قدر الله الى قدر الله . آرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان ، احداهما مخصبة والاخرى جدبة ، أليس ان رعيت المخصبة رعيتها بقدر الله ، وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله » .

وتبين من سرد هذه الاحاديث انها تتناول القدر بمعنى قضاء الله مصداقاً لقوله تعالى : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » أي قضى لنا من خير وشر (١) ، ومصداقاً لقوله تعالى « قدر فهدى » . ومن هنا ورد النهي عن الاعتراض على قدر الله بمعنى قضائه وخلقه الأشياء على صفات مخصوصة ، وهذا معنى قوله ﷺ « اذا ذكر القدر فأمسكوا » (٢).

٣ ـ مسألة القضاء والقدر :

مسألة القدر شغلت الناس منذ عهد قديم ، فقد كانت موضع بحث السومريين والبابليين والاشوريين ، فقد اعتقدوا بالقدر المسيطر على نظام الكون وعلى المصير الانساني وآمنوا بالقدر ناموساً الهياً يسير كل كائن ويحدد اتجاه تطوره ،والهنود آمنوا بالقدر ويسمونه (الكارما) او المرسوم الالهي ، ومعناه القدر على الزمان والمكان والخالق والمخلوق وانه يعيد الكون مرة بعد مرة على نظام واحد يتكرر فيه كل موجود ، والفرس القدامى قالوا بالثنوية فجعلوا القدر خيراً لرب النور والقدر شراً لرب الشر . وكذلك شغلت مسألة القدر المصريين القدامى فآمنوا بالعقاب والثواب الاخروي ، كما آمنوا بسيطرة رب الارباب على تصريف الاكوان(٣) .

---

(١) شرح القسطلاني على البخاري المسمى بارشاد الساري ٢١٦/١١ – المطبعة اليمنية بمصر .

(٢) اخرجه الطبراني عن ابن مسعود .

(٣) انظر تاريخ الفلسفة العربية للدكتور خليل الجر وحنا الفاخوري /١٧ والفلسفة القرآنية لعباس محمود العقاد / ١٢٧ – ١٢٨ .

كما شغلت فلاسفة اليونان اذ بحث افلاطون مسألة القضاء والقدر وبحثها ارسطو وقالا بأنه لا قدر هناك ولا تقدير وان الانسان حر في ان يختار لنفسه ما يشاء ، وان حرية الانسان في طلب الكمال لا يحدها قدر مقدور من الاله الاعظم بل تحدها كثافة المادة (١) .

وبحثها الرواقيون والابيقوريون وافلوطين من القدامى حتى انتهى البحث فيها الى علماء المسلمين ، وكانت المسألة كلها تدور على ما هو من فعل الله وما هو من فعل العبد ، وهل للعبد حرية في اختيار ما يشاء والقيام بأفعاله او هو مجبر على ذلك ، وتناول الباحثون المسألة من جهة الدين ومن جهة الفلسفة وخلط آخرون بين الدين والفلسفة .

وقد تناول الاسلام موضوع القضاء منفرداً كما ذكر في ما ورد في القرآن من آيات وما روي عن النبي عليه السلام من أحاديث ومنها قوله عليه السلام « اذا قضى الله لعبد ان يموت بأرض جعل له اليها حاجة » (٢) ، وقوله « من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله ، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله ، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له »(٣) .

كما تناول موضوع القدر منفرداً ، ولكن استعمال كلمتي القضاء والقدر مجتمعتين معاً مما جرى بحثه بعد القرن الاول الهجري حتى اصبحتا كلمتين متلازمتين لم يرد الا بعد اتصال المسلمين بعلم الكلام وفلسفة اليونان . والآيات والاحاديث التي وردت في معنى القضاء والقدر منفردين ، يؤخذ منها تحديد كل منهما اذا استعمل لفظاهما مجتمعين ، فكما ورد القدر بمعنى القضاء فقد ورد بمعنى الصفات والخصائص في الاشياء فالشرع تعرض لهاتين الكلمتين وبحثهما ، وقد خاض علماء المسلمين في بحث القضاء والقدر وافعال الانسان على محملهما وانتهوا الى مذاهب متعددة في هذا الشأن ابرزهم القدرية (وقد انتهى امرهم) ، غيلان الدمشقي واتباعه ، والجبرية وهم جهم بن صفوان واصحابه ، والمعتزلة والامامية والاشاعرة والماتوريدية ، وقد كان لكل منهم آراء اختلفوا فيها بمقدار فهمهم لنصوص القرآن والحديث وتأثرهم بعلم الكلام .

---

(١) الفلسفة القرآنية للعقاد / ١٣٠ .

(٢) رواه الترمذي عن مطهر بن عكامس وقال لم يرو له غيره .

(٣) رواه الترمذي .

٣ - ١ (كيف نشأت مسالة القضاء والقدر) ؟

نشأت مسألة القضاء والقدر في الاسلام ، يوم بــدأ المسلمون يتنازعون في القدر على عهد رسول الله ﷺ ونهاهم عن ذلك ، وبقي المسلمون يحجمون عن الخوض حتى كان من صبيغ ان تكلم بالقــدر متأثراً ببعض الآراء الفلسفية التي كانت في العراق ، ثم فشت مقالته بين عدد من الناس مما اضطر العلماء الى نهيهم ومقاطعتهم حتى لقد روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه انه شدد على من يتكلم بالقدر وكره القدرية ، فعن ابي يحيى الاعرج قال سمعت ابن عباس وقد ذكر القدرية يقول : « لو ادركت بعضهم لفعلت به كذا وكذا (١) وعن عطاء بن ابي رباح قال : أتيت ابن عباس وهو ينزع من ماء زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه فقلت له : قد تكلم في القدر . فقال او قد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : فوالله ما نزلت هذه الآية الا فيهم (ذوقوا مس سقر ، إنا كل شيء خلقناه بقدر) اولئك شرار هذه الامة فلا تعودوا مرضــاهم ، ولا تصلوا على موتــاهم إن رأيت أحدهم فقأت عينيه باصبعي هاتين (٢) . وقد كان لعبد الله بن عمر صديق من اهــل الشام يكاتبه فكتب اليه ابن عمر : « انه بلغني انك تكلمت في شيء من القدر فاياك ان تكتب الي فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون في امتي أقوام يكذبون بالقدر » (٣) .

وقد تجرأ في الفتنة الاولى ايام عثمان رضي الله عنه من تحدث في القدر كعبد الله بن سبأ والخوارج والشيعة وناظرهم ابن عباس وعلي بن ابي طالب ، ثم تجرأ اناس في الفتنة ايام علي ونشأت القدريه الذين كانو يقولون بان الانسان حر الارادة ولاسلطان لله عليه في افعاله ورأسهم غيلان الدمشقي ، والمرجئه الذين غلوا في الوعيد وادخلوا بعض المؤمنين النار يقول الطحاوي « وفيهم (في هؤلاء جميعاً) من استعان على ذلك بشيء من كتب الاوائل اليهود والنصارى والمجوس والصابئة فصار عندهم من خلافتهم ماادخلوه في مسائلهم ودلائلهم » (٤) .

وتشأت فرقة الجهيمة في مقابل القدرية التي قالت بالجبر وهم اتباع جهم بن صفوان السمرقندي الذي اتخذ عن الجعد بن درهم رأيه وقد قتله خالد بن عبدالله القسري ، وكان

---

(١) تفسير الالوسي ٢٨٥/٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢٦٧/٤ .
(٣) رواه احمد بن حنبل وابو داود .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية /٥٩٣ .

جعد قد اخذ رأيه من الصابئة فلاسفة حران وقد تسمى الجبرية (قدرية) ايضاً لانهم غالوا في اثبات القدر .

وقد تقلد رأي القدرية الاولى واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري وسمي واتباعه بالمعتزلة ، وكانوا قد اطلعوا على الفلسفة اليونانية وتسربت اليهم آرؤهم وتناولوا مع المرجئة والجبرية مسألة مرتكب الكبيرة ، ونشأت عندهم مسألة العدل وهو ان الله عادل وتفرع عنها مسألة الثواب والعقاب ، ونشأ بين المعتزلة واهل السنة جدل وكلام ، ودار البحث بينهم حول افعال العباد وخلق هذه الافعال والثواب والعقاب والقدر ، ونشأت لاول مرة كلمة القضاء والقدر مجموعتين ، واتخذ المنطق والفلسفة اساساً في البحث والجدل ، وفلسفوا الآيات القرآنية والاحاديث المتعلقة بذلك وبارادة الله وعلمه وعقابه وثوابه ، من مثل قوله تعالى « وما الله يريد ظلماً للعالمين » ١٠٨ آل عمران ، وقوله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »١٨٥ البقرة ، وقوله « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون » ٦ البقرة ، وقوله تعالى « ولا يرضى لعباده الكفر » ٧ الصافات ، وقوله « ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » ١٨ الرعد ، وقوله « والله خلقكم وما تعملون » ٩٦ الصافات ، وقوله « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ٤٩ الكهف ، وقوله « وماتشاءون الا ان يشاء الله » ٣٠ الانسان ، وقوله « افمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار » ١٩ الزمر ، وقوله « وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى » ٩٤ الاسراء ، وقوله وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الاخر » ٣٩ النساء ، وجرى التوفيق بين هذه الآيات الدالة على الجبر والاختيار (١) .

واصبح بعد هذا كله للمسلمين طوائف ثلاث : جماعة الغلاة في اثبات القدر وهم الجبريون ، وجماعة الغلاة في انكار القدر وهم القدريون (المعتزلة) وجماعة المعتدلين المجتهدين في التوفيق بين هؤلاء وهؤلاء وهم اهل السنة (٢) .

---

(١) انظر فجر الاسلام /٣٤٧ وضحى الاسلام ٣/٣ وما بعدها لاحمد امين وشرح العقيدة الطحاوية /٥٩٠ وما بعدها والفلسفة القرآنية للعقاد / ١٥٠ وما بعدها .

(٢) الفلسفة القرآنية للعقاد /١٥٠

وعند المتكلمين نشأت لفظتا القضاء والقدر مجموعتين ومن خلال البحث والمناظرة والخلاف تحدد مفهوم القضاء والقدر عند اصحاب المذاهب ، ووضح موقف الانسان في حريته وافعاله امام القضاء والقدر ، فقالوا القضاء ايجاد جميع الموجودات في اللوح المحفوظ والقدر ايجادها في الاعيان لقوله تعالى « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » ٢ الفرقان (١) ، او القضاء ارادة الله تعالى وتعلقها الازلي والقدر ايجاد الله الاشياء على وفق الارادة. او القضاء علم الله الازلي وتعلقه بالمعلوم والقدر ايجاد الله الاشياء على وفق العلم . او القضاء ابراز الكائنات على وفق علم الله تعالى والقدر بتحديد كل شيء بحده الذي يوجد عليه (٢) ، وفرق المعتزلة بين ما يصدر عن الله وهو القضاء وما يصدر عن العبد من فعله وهو من مخلوق له ، وقالوا بان ما تولد من فعل الانسان فهو منه والا فلا ، والعبد هو الذي يخلق افعاله الى آخر ذلك مما سنبينه في آرائهم . وبهذا نشأت مسألة القضاء والقدر وافعال الانسان (٣) .

٣ ـ ٢ رأي الفلاسفة اليونانيين في القضاء والقدر

الابيقوريون

تعرضنا لاراء الفلاسفة اليونان في القضاء والقدر في ايجاز مضى ، اما الابيقوريون فانهم يرون ان الانسان يجب ان يعيش وفاقاً لنواميس الطبيعة فهم يرفضون الفلسفة المثالية ، وقد تأثروا بذلك بصراع اليونان مع غيرها من الشعوب وقد انهكتهم الحروب ، وفقدت يونان كثيراً من الحرية فقامت الفلسفة تقصر نظرتها على عالم الحس عالم الشهادة ولم تحفل الا بالمبادىء الجسمانية ومثلها الفلسفة الرواقية (٤) فقصر الابيقوريون الحياة على الحصول على السعادة والسعادة في اللذة ، واللذة قسمان للجسد وللنفس فلذة النفس كالامان والاطمئنان ولذة الجسد قسمان متحركة كالمتعة وساكنة كالخلو من الالم ، والانسان يحقق رغباته الثلاث الطبيعية الضرورية كرغبة الاكل والطبيعية غير الضرورية كرغبة النكاح ، وغير الطبيعية وغير الضرورية كرغبة السيطرة ، والانسان حر في ممارسة تحقيق هذه الرغبات عندما يشعر بالحاجة اليها (٥).

---

(١) ارشاد المريد لحسن العدوى / ١٥٥ .

(٢) حاشية البيجورى على رسالة كفاية العوام للصنعاني /٨٩ طبعه مصر سنة ١٢٨٧ ه

(٣) نهاية الاقدام للشهرستاني / ٣٩٧ – طبعةاكسفورد – والفصل في الملل والنحل لابن حزم٣/٩٨ومابعدها.

(٤) الفلسفة الرواقية للدكتور عثمان امين / ٥ طبعة مكتبة النهضة المصرية .

(٥) تاريخ الفلسفة العربية للدكتورين حنا الفاخوري وخليل الجر /٦٥ طبعة بيروت .

ومبعث هذه الحرية عند الابيقوريين انهم يرون ان معظم اسباب القلق والبؤس والاضطراب الخوف من عالم غيبي علوي ، ولذلك لجأوا الى المنطق الحسي ، والى معاييره الثلاثة في معرفة الحقيقة والصواب ، وهي الاحساس والتنبؤ والانفعال ، فالاحساس بالواقع يجعل الذاكرة تتحول الى تنبؤ والتنبؤ يزول بسرعة لولا الالفاظ التي تثبته وتحوله الى انفعال. وهم لا يؤمنون بوجود نظام عام في العالم اذا كان المقصود بالنظام وجود غاية ترمي اليها ارادة عاقلة ، فالكون عندهم يتكون من ذرات ومن فراغ وقد وجد بالصدفة ، والتفاعلات الزائدة يفني بعضها بعضا (١) . وقد رأو ان الانسان حر لان ذراته النفسية اللطيفة قادرة على تغيير منحى اتجاهها والقيام برد فعل يعاكس منحى الضرورة الباطنية التي تحاول اجباره على شيء معين فيقاومها ويوجهها نحو مايتفق مع الواجب والحكمة ، وهذه هي اللذة الفاضلة وهي هدف الحياة ويرى ان الالم شر خالص ولذلك يجب التخلص منه ، والانسان حر قادر على نفي الالم بترك الغلو في اشتهاء اللذة والاسراف فيها . فالابيقوريون لا يقولون بوجود القضاء والقدر ، ولايرون له سيطرة على الانسان بل يرون ان ارادة الانسان حرة في الاختيار وان الانسان يفعل جميع الافعال بارادته واختياره بدون اي اكراه (٢) ، وبهذا المذهب الابيقوري تأثر غيلان الدمشقي ثم المعتزلة ، ووفقوا بين معتقدهم وبينه ، وقالو بآرائهم في حرية الانسان وخلقه لافعاله (٣) .

رأي الرواقيين في القضاء والقدر

واما الرواقيون فانهم يعتقدون بانه توجد في قلب الفراغ الواسع اللانهائي كتلة مادية كثيفة صماء وهي جسم محدود مليء خال من الانقسام بعيد عن التجزؤ وفيه مبدآن : مبدأ منفعل يحمل الكيفيات وهو المادة ؛ ومبدأ فاعل ناشط هو النار الفنانه التي تنفذ في جميع اجزاء المادة وتختلط بها ، وهي تؤلف الطبيعة والحياة وروح الاشياء والجزء العاقل من النفس ، وهي كون كل شيء وهي العقل الكلي الذي يدبر الامور ، والقدر الذي يحكم الاشياء ويربط العلل بالمعلولات على مقتضى انظمة ثابتة لا تتغير وهي العناية التي تصنع كل شيء في العالم

---

(١) المذاهب الاخلاقية للدكتور عادل العوا /١٤٥ مطبعة جامعة دمشق .

(٢) الشخصية الاسلامية لتقي الدين النبهاني ٤٩/١ .

(٣) انظر كتاب الفلسفة الاغريقية للدكتور محمد غلاب ١٩٧/٢ وما بعدها طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ .

على خير ما يمكن ان يكون . (١) - والعقل الكلي عندهم هو الله وهو نفسه خالق العـالم وهو نفسه جوهر العالم وحقيقته وهو قانون به ربطت الاشياء ببعضها رباطا محكما وهذا هو القضاء والقدر عندهم ، فالقضاء تسلسل العلل والاسباب تسلسلا يستلزم ان يكون كـل حادث نتيجة لعلة ، وكل علة مرتبطة باخرى وهكذا الى غير نهاية فالليل علة النهار ، والشتاء علة الصيف والقدر علة عامة لجميع الموجودات وهو العقل الكلي وهو الذي يحدث التسلسل في العلل الخاصة الجزئية . وكل شيء عندهم يحدث بالقدر . ومعنى ان الانسان مجبر في افعاله أنها تحدث على قدر مرسوم فما قدر لنا انه سيقع فلا بد ان يقع ، فمن قدر له المرض فلا بد ان يمرض ومن قدر له الشفاء فلا بد ان يشفى ، استدعى طبيبا او لم يستدع . واذا استدعي الطبيب فهو من القدر المكتوب وهو ما يطلق عليه الرواقيون «السبب المتواكل»(٢) وقد قال كروسيوس من الرواقيين بنظرية الكسب وذلك حين قدرها بقوله « اذا كانت الاشياء خاضعة للقضاء فليس ذلك القضاء بملزم للفعل ولا بمانع له ، وافعال الناس وان تكن واقعة تحت حكم القدر الا انها حاصلة عن الكسب والاختيار ، والانسان على كل حال قادر على ترك الفعل قبل وقوعه » وكروسيوس يرى ان العلل اما ان « تكون اصلية كاملة او مساعدة وهي التي تنصب على الشيء من الخارج ، فالشيء لايحصل الابواسطة علل اصلية ومساعدة. مثال ذلك الاسطوانة او المخروط لا يستطيعان ان يتحركا الا اذا جاءتهما الحركة من الخارج وهي العلة المساعدة ، ولكنهما يتحركان على طريقتهما الخاصة في الحركة والدوران ، وهذه هي العلة الاصلية ، فالقدر هو العلة المساعدة ، اما شكلهما الخاص فهو العلـة الاصلية ، وكذلك الحال بالنسبة للانسان فارادته الحرة هي العلـة الاصلية الكبرى للفعل ، والتصور المحيط القاهر المستولي على النفس هو العلة المساعدة فالانسان خاضع للظروف الخارجة عنه وهي القدر ، لكن الانسان قادر على الاختيار فلـه ان يرفض او يقبل التصور او الخاطر او الظروف التي تأتيه من الخارج فالانسان حر وله كسب واختيار والقدر ليس العلة الاصلية في حصول الافعال بل هو العلة الخارجية المساعدة للافعال (٣).

---

(١) المذاهب الاخلاقية للدكتور عادل العوا ١/١ - ١٨٢ .

(٢) الفلسفة الرواقية للدكتور عثمان أمين / ١٦٩ - ١٧٢ .

(٣) الفلسفة الرواقية للدكتور عثمان امين / ١٧٢ - ١٧٤ .

وقد ارجع الرواقيون الشر الى ما منح الله الناس من حرية التصرف في شئونهم فهم قد يسيئون استعمال هذه الحرية في شئون كثيرة كالصحة والمال والسلام فلا يعد الله (العقل الكلي) مسئولا عن العواقب التي تنجم عن حرية الانسان بل الانسان هو المسئول عنها، لان الله لا يصدر عنه الا الخير، والشر يخدم الخير ويصاحبه (١).

ويتضح من ذلك كله ان الرواقيين — وهم الذين يقولون بوحدة الوجود — يقولون بسيطرة القضاء والقدر باعتبار انه العلة المساعدة والانسان يعيش ضمن دائرة القضاء والقدر ولكن له حرية الاختيار والكسب، والخير من الله، واما الشر فانما يحصل من سوء تصرف الانسان في حريته التي اعطاها له الله.

وقد فهم عباس محمود العقاد والشيخ تقي الدين النبهاني من مذهب الرواقيين أنه معناه الجبر واشارا الى ذلك في كتابيهما الفلسفة القرآنية للعقاد / ١٣٢ والشخصية الاسلامية ١/ ٤٩ خلافا لما ذهبت اليه، ولذلك فانا ارجح ان رأي الاشعريين متأثر بمذهب الرواقيين وان كنت لا استطيع الجزم بذلك (٢).

٣ — ٣ : رأى المعتزلة في مسألة القضاء والقدر :

اصول المعتزلة التي يبنون عليها مذهبهم هي، العدل والتوحيد (٣)، وانفاذ الوعيد (٤) والمنزلة بين المنزلتين (٥)، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويهمنا منها ما يتعلق بالقضاء والقدر وهو العدل (٦)، اذ العدل من صفات الله والظلم والجور منفيان عنه قال تعالى: « وما ربك بظلام للعبيد » ٤٦/فصلت، وقال « وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون » ١١٨/النحل وهو لا يخلق الشر ولا يقضي به ويريد خير ما يكون لخلقه، وارادة الله

---

(١) المصدر السابق / ١٦٩ وما بعدها.
(٢) انظر ما يقوله الدكتور محمد غلاب في كتابه الفلسفة الاغريقية الجزء الثاني عن الرواقيين صفحة ١٨٣ وما بعدها.
(٣) يعنون بالتوحيد تنزيه الله عن الشبه ويبسطون القول في تأويل الايات المتشابهة ويرون ان صفات الله متحدة بذاته لا يشبه بها احدا من خلقه.
(٤) ايجاب الوعد والوعيد بحيث اوجبوا على الله الثواب والعقاب ويرى غيرهم ان الثواب فضل من الله وعدبه والعقاب عدل له ان يعفو عنه.
(٥) هي منزلة مرتكب الكبيرة وهو الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر بل في منزلة بين الكفر والايمان.
(٦) الانتصار لابي الحسين الخياط / ١٢٦.

لا تتعلق بكل ما في العالم من خير وشر لان مريد الخير خير ، ومريد الشر شرير ، ومريد العدل عادل ، فاذا كان الخير والشر مرادين من الله فيكون الله متصفا بالخير والشر والعدل والظلم وهذا محال على الله ، فالله عند المعتزلة مريد لما امر به من الطاعات ان يكون كالصلاة والزكاة والصدق والجهاد وتوحيد الله ، ولا يريد منـا ان نكفر ، وان نعصي ، ولا يريد المباحات ولا يكرهها . ولو كان الله مريدا لكفر الكافر وظلم الظالم ما نهاه عن ذلك ويستدلون بمثل قوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ١٨٥/ البقرة ، ويرجع هذا الى تصورهم لعدل الله .

ومن هنا قالو بحرية الارادة ، وان معنى القضاء والقدر هو افعال العباد وخاصيات الاشياء فهم يقولون ان العبد يخلق افعاله ويسيرها بقدرته وارادته ، وان الافعال تتولد من الافعال والافعال هي الحركة اما ما ليس بحركة فهو من خلق الله ، والانسان يختار اي فعل يفعل اخذا من قوله تعالى « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ١٣٤ /البقرة وقولـه « فمن يعمل مثقال ذرة خـيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ٧ /الزلزلة ، ويرى المعتزلة ان قدرة العبد التي يخلق بها افعاله هي خلق الله تعالى ولا يتنافى خلقها مع خلق العبد افعاله بهذه القدرة ، فالانسان يحرك يده ويده مخلوقة لله ، وعليه فان الثواب يترتب عـلى فعل الانسان للخير والعقاب يترتب على فعله للشر .

ومن هنا نرى تفسير المعتزلة للقضاء والقدر تفسيرا فلسفياً فمـا تعلق بفعل الله فهو القضاء والقدر ، وما كان الانسان حرا فيه فلا كالذهاب والاياب فهو فعـل العبد وهو مخلوق له لا لله . فالقضاء والقدر عندهم اقدار الانسان على الفعل وتمكينه منه (١) .

٣ ـ ٤ : رأي الجبرية في القضاء والقدر :

يرى الجبرية ان العبد لا يخلق افعاله ، وليس له مما ينسب الى الافعال شيء ، وقوام مذهبهم نفي الفعل حقيقة عن العبد واضافته الى الله تعالى ، اذ العبد لا يوصف بالاستطاعة ، وانما هو مجبور في افعاله لا قدرة له ولا ارادة ولا اختيار ، والله سبحانه يخلق فيه الافعال على حسب ما يخلق في سائر المخلوقات .

---

(١) انظر ضحى الاسلام لاحمد امين ٥١/٣ وما بعدها . ومعالم الفلسفة الاسلامية لجواد مغنيه / ١٤٦ . وما بعدها .

وتنسب الافعال الى الانسان مجازا كما تنسب الى الجمادات، وكما يقال اثمرت الشجرة او جرى الماء، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس وغير ذلك، والثواب والعقاب جبر والتكليف من الله جبر، ويستشهدون بمثل قوله تعالى « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » ٥١/التوبه، وقوله « من يهـــد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون » ١٧٧/الاعراف، وقوله « والله خلقكم وما تعملون » ٩٦/ الصافات (١) وقـــد بينا ان جهم بن صفوان هو اول من قال بمثل هذا الراى .

٣ـ٥ رأى الاشاعرة في القضـــاء والقدر :

يرى الاشاعرة ان الامور خيرها وشرها بقضاء وقدر، والايمان بذلك واجب وذهبوا الى تحديد القضاء والقدر كما قرر ذلك نصر الدين الايجي في المواقف بان قضاء الله تعـــالى هو ارادته الازلية المتعلقة باشياء على ماهي عليه فيما لا يزال وقدرة ايجاده اياها على قـــدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها واحوالها، ويفهم من هذا ان القضاء، قديم والقدر حادث(٢)

وقد رأى الاشعرية في قدرة الله تعالى وافعال الانسان رأيا وسطا بين الجبرية والمعتزله فهم لا يقولون بان الانسان لا يستطيع احداث شيء او كسبه ولا يقولون بان العبـــد يخلق افعال نفسه بقوة اودعها الله فيه، ويقسمون الافعال الى اضطرارية واختياريـــه كما يقول المعتزله، ولكنهم يقررون ان الانسان يشعر بان الحركات الارادية تصدر عنه باختياره، وان له القدرة على القيام بها وعدم القيام، وهذه القدرة شيء خارج عن الذات زائد عليها تلازم الانسان احيانا وتفارقه احيانا ، وهي غير خالقة لافعال الانسان، لان الافعال الاختياريه لو كانت من خلق الله والعبد لجاز اجتماع مؤثرين في مؤثر واحـــد وهذا محال ، وقـــدرة الانسان وان لم تكن خالقة فهي كاسبة لان الكسب نتيجة لتوجيه العبد ارادته شطر العمل فاذا اراد الانسان عمل الخير خلق الله فيه القدرة على عمله، واستحق الثواب بكسبه اياها ، واذا اراد الانسان الشر خلق الله فيـــه القدرة عليه ؛ واستحق العقاب عليها فأفعال العبـــاد الاختيارية تتعلق بها قدرة الله تعالى تعلق الايجاد وقدرة العبد على وفق ارادته تعلق الكسب قال تعالى « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » وعلى هذا تكون المعاصي واقعة بارادته تعالى

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية / ٤٩٣ والفلسفة القرآنية للعقاد / ١٥١ .

(٢) المسامرة شرح المسايرة / ١٣٦ وحاشية البيجورى على كفاية العوام / ٨٨

ومشيئته ، والاشعرية بهذا ينفون قدرة التأثر عن العباد ، سأل ابو الحسن الاشعرى (واليه ينسب مذهب الاشاعرة ومذهب اهل السنة لانه انتصر للسنة ضد المعتزلة) ، استاذه ابا الحسن الجبائي ماتقول في ثلاثة اخوة اخترم الله احدهم قبل البلوغ وبقي الاثنان فآمن احدهما وكفر الاخر فاين يذهب الصغير ؟ قال الجبائي « انه يذهب الى مكان لا سعادة فيه ولا عذاب .. فسأله الاشعرى لماذا يذهب الى ذلك المكان وهو لم يأت شرا ولا خيرا ، فأجابه : انه اختبر ولانه علم لو بلغ لكفر فقال الاشعرى : فقد احيا احدهم فكفر فلماذا لم يمته صغيرا ؟ فسكت الجبائي عن الجواب . ويريد الاشعرى بذلك ارجاع الامر كله الى الله خلافا لرأي المعتزله .

فالله عند الاشاعرة واهل السنة عامة هو وحده القادر على كل شيء من خير اوشر ولو لم يكن كذلك لخرج شيء من العالم عن قدرته سبحانه ، ولكان بعض خلقه شريكا له في الايجاد والخلق . واستشهدوا بمثل قوله تعالى «الله خالق كل شيء » ٣٩/ الزمر وقوله تعالى « ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء » ١٦/ الرعد (١)

٣ـ٦ رأى الماتريدية في القضاء والقدر وفعل الانسان

الماتريدية ـ مذهب نسب الى ابي منصور الماتريدي من اهل السنه ـ وهم اول من اهتم بآراء العقائد عند الحنفية وقد ذكر ابو منصور الماتريدي انه تأثر بكتابي الفقه الاكبر والفقة الابسط لابي حنيفة ورسالته (العالم والمتعلم) وانه رواهاوفرع عنها ، وهو يتقارب مع الاشعري في النتائج ويختلف معه في كثير من المسائل ، ويتقارب مع المعتزله في وجوب النظر العقلي ويعتمد على العقل بارشاد الشرع وبهذا يكون الشرع والعقل مصدرين عنده من مصادر العقائد .

ولا يختلف في معنى القضاء والقدر عن الاشعرى فالقضاء عند الماتريدية حكم الله وامره والقدر ما يقع من العبد المقدر في الازل من خير وشر وحلو ومر وهو من الله تعالى بخلقه وارادته (٢)

---

(١) راجع التبصير في الدين للامام ابي اسحاق الاسفراييني /٣٨ طبع القاهرة سنة ١٩٤٠ والفلسفة القرآنية للعقاد / ١٥٣ والقرآن والفلسفة للدكتور محمد يوسف موسى / ١٤٧ طبع دار المعارف .

(٢) انظر شرح ملاعلي القارى على الفقه الاكبر / ٤١ .

والماتريدية يقررون ان الفعل مخلوق لله تعالى لاننا اذا نسبنا خلق الافعال لغير الله فقد اشركنا معه غيره في الخلق ، وهذا يثبت ان لله شركاء وهو غير مقبول ولا معقول ، وحكمة الله اقتضت ان يكون ثواب وعقاب فلا يكون ذلك الا على تمكين العبد اختيار ما يستحق بـه الثواب او العقاب وهذا مقتضى العدالة . ولا يتناقض الاختيار مع خلق الله للافعال لان العبد حين يكتسب الفعل يكون له تأثير في هذا الكسب باختياز الفعل الصالح او السيء ، وذلك بقدرة اودعها الله سبحانه وتعالى فيه تجعله حرا فيما يختار وتمكنه من فعل الخير او عدم فعله وهو ما يسمى عند هم بالارادة الجزئية ، وعلى هذا يكون التكليف . ويفترق في هـذا عن الاشعرية ، الذين يقولون ان الفعل مخلوق لله تعالى ، والعبد له الكسب دون ان يكون له تأثير فيه وعلى هذا الكسب يكون التكليف وما يترتب عليه من ثواب وعقاب .

٧ـ مناقشة وتوضيح لمعنى القضاء والقدر وفعل الانسان

البحث في مسألة القضاء والقدر من اكثر الابحاث عموما اذا تناولنـا ذلك من طريق استعراض الآراء وتناول الآيات المختلفة التي تدعو الى الاختيار او الى الجبر . ولهذا كان الخلاف كبيرا بين علماء الكلام ، وعندما نناقش آراءهم وتأويلاتهم نحتاج الى سفر ضخم نتتبع فيه آراء كل من اصحاب المذاهب ، وما قرروه بشأن القضاء والقدر وافعال الانسان وشأن الآيات والاحاديث وردود كل منهم على الاخر .

غير اننا نرى ان ما ذهب اليه المعتزله هو رأي فلسفي مـأخوذ عن الفلاسفة القدامي الذين قالوا ان العقل الاول يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات فحوروا ذلك وزعموا ان القضاء والقدر انما يقع في الدائرة التي لا يسيطر عليها الانسان ، وان اعمال الانسان حادثة لا تدخل في علم الله حين وقوعها وبهذا ينسبون الى الله الجهل ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولا تتعلق ارادته بافعال الانسان وفي هذا سلب للارادة عن الله ، ويتنافى مع الالوهية .

وان ما ذهب اليه الاشعرية غامض اذ كيف يحاسب العبد على كسب ليس لـه فيه تأثير ، ولا يتمكن من اختيار الفعل بحال من الاحوال ، ومن اجـل هذا الغموض في ترتيب التكليف على الكسب الذي لا تأثير للعبد فيه ، اتهم الاشعري بالجبرية ، وهاجمه فيها الظاهرية كابن حزم ، والحنابله كابن تيمية ، ووصفوا رأيه بانه (الجبر الكامل) وبهذا توسط الماتريدي

بين المعتزله الذين قرروا ان خلق الفعل من العبد بقدرة من الله، والاشاعرة الذين قرروا ان لا قدرة للعبد في خلق الفعل ،ولكن له الكسب المقترن بالفعل دون تأثير من العبد، والماتريدي قرر ان الكسب بقدرة العبد وبتأثيره والله الذي خلق الافعال فنفى عن الله الشركة في خلق الافعال، واثبت له العدل في التكليف لانه منحه الاختيار في الكسب .

ثم ان هذه التعريفات الاصطلاحية المتعـددة للقضاء والقدر بحسب اتجـاه كل من اصحاب المذاهب ، تدل على الاضطراب في فهم مسألة القضاء والقدر وعـدم وضوحها ، وما ورد من النصوص في النهي عن البحث في القـدر يقصد منها عدم التعرض لقدر الله واضاعة الوقت في البحث الجدلي الذي لا يفيد .

وبعيدا عن الجدل وعلم الكلام والتأثر بأي رأي فلسفي ، فان الانسان يرى أنه يعيش في كون ليس له تأثير في ايجاده ولا في تصريف شئونه ، وانه هو وجد على هذه الحياة من غير ان يكون له رأي في وجوده او عدم وجوده ، ومن غير ان يكون له تأثير في اختيار الوقت والمكان الذي وجد فيه ، ولا الشكل الذي وجد عليه ، والانسان يشعر ان هنـاك اعمالا تقـع منـه او عليه ، او تقع في الكون امامه وبين يديه لا يملك ان يتصرف فيها ، ولا ان يدفعها ، وليس له يد في ايجادها كالزلازل والامطار وتحركات الكواكب والموت والحياة وسنن الكون كلها وهذا من شأن الله سبحانه ومتعلق به وهو مـا يسمى (قضاء) ، فالقضاء هو ما يقع من الله سبحانه وتعالى من تصرف في الكائنات : ايجادا او عدما او تدبير امور ، وهو اما داخل في نظام الوجود وترتيبه ، او يصدر عن الانسان من غير ان يكون له فيه تأثير كالافعال الاضطرارية او غير الشعورية . والانسان في هذه الحالة مجبر على تلقي القضاء ولا يستطيع ان يدفعه ، ولا يؤاخذ على ما يحدث له او منه او عليه اضطرارا او من نظام الوجود ، وعلى هذا كل ما وردت من نصوص في نسبة الاشياء والافعال الى الله تعالى .

والله سبحانه اودع في الاشياء خصائص وقابليات وطبائع ، كما اودع في الانسان غرائز وحاجات عضوية يصدر عنها ميل ، فجعل من خصيصة النار الحرق ، ومن خصيصة الخشب والقش الإحتراق ، ومن طبيعة الحديد الصلابة ، ومن خصيصة الانسان الموت ، وهـذا هو القدر الذي اودعه الله في الاشياء قال تعالى « انا كـل شيء خلقناه بقدر » اي قياس مضبوط وقوة بالغة كما مر معنا في تفسير هذه الاية ، وقال « والذي قدر فهدى » اي اوقع

تقديره في اجناس الاشياء ومقاديرها وصفاتها كالبطش لليد والمشي للرجل والموت للانسان والتمييز للعقل والسيولة للماء الى آخر ذلك كما مر معنا في تفسير هذه الاية عند شرح معـنى القدر في القرآن ، فاذا اجتمع قضاء وقدر اي تصرف من الله سبحانه وتعالى خـارج عن ارادة الأنسان مع خاصية او قابلية من القابليات التي اودعها فينتج عن ذلك فعل او شيء كان القضاء والقدر ، فلو حملت الريح نارا من طبيعتها الحرق ووضعتها على بيدر قش من طبيعته الاحتراق كان حمل الريح قضاء، وكانت الخصائص في النار والقش قدراً ، فالتقى القضاء والقدر فكان احتراق بيدر القش فقيل (قضاء وقدر) ، ومثله لو اصطدمت السيارة بصخرة من غير اهمال السائق فمات السائق نقول حدث هذا قضاءاًوقدراً ، فالقضاء اصطدام السيارة بالصخرة ، والقدر في السيارة — وهي حديد — الصلابة وكذلك في الصخرة ، والقدر في الانسان قابليته للموت فكان القضاء اصطدام السيارة والقدر قابلية الصخرة والسيارة للاماتة وقابلية الانسان للموت فكان القضاء والقدر .

هذا هو قضاء الله وقدره ، والله سبحانه خلق الانسان قضاء ، واودع فيه الخصائص والطبائع ، وهي ميول تنشأ عن الغرائز والحاجات العضوية التي قضاها فيه وخلق التمييز في العقل قدراً ، وبين له طريق الخير وطريق الشر « وهديناه النجدين » .

وارشده الى العمل الصالح والعمل السيء ، وطلب اليه ان يعمل العمل الصالح ونهاه عن فعل العمل السيء ، ومكنه من التأثير في العمل والتمييز بين الشر والخير فعندما يريـد الانسان ، مختارا ، ان يقوم بالعمل نتيجة للميل الذي يحدث فيه فاما ان يفعله خيرا او شراً ، والعقل يميز بين الخير والشر ، فيترتب على فعله الخير ثواب ، وعلى فعله الشر عقاب . ولذلك كان التكليف في الشرع منوطاً بالعقل وبارسال الرسل ، فـاذا كان الانسان صبيا او مجنونا فلا تكليف ، ويرتفع عن الانسان التكليف في حالة النوم او الاغماء قال تعالى « انـا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » ٣/الانسان ، واذا لم يكن رسول يبين الخير والشر للناس فلا تكليف ، قال سبحانه « وما كنامعذبين حتى نبعث رسولا » ١٥ /الاسراء . فالانسان مخير في فعل الخير او الشر فان فعل الخير فله الثواب وان فعل الشر فعليه العقاب قال تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يفعل مثقال ذرة شراً يره» ٧ / الزلزلة ، وارادة الله تتعلق بفعل العبد بمعنى انه ترك العبد يفعل الفعل مختارا ، وعلم الله تعالى علم ازلي علم انكشاف تعلق بفعل العبد الذي خلقه الله سبحانه فيه ، وكان للعبد تأثير في القيام به وفق هـواه ،

والانسان لا يفعل الفعل بناء على علم الله وانما يفعله بناء على رغبته التي خلقها الله فيه او قام هو بالتصرف والتاثير في الفعل . ونحن لا ندري ذات الله لقصور عقولنا ولا ندري كيفية الصفات المتعلقة به ولا كيفية قيام الله سبحانه وتعالى بها ، فذلك فوق عقولنا ، وانما ندري بالاشياء والافعال حين وقوعها او حين قيامنا بها ، وعلى هـذا فعلم الله لا ينفي الاختيار والتأثير في العقل وارادة الله لا تفرض على الانسان اختيار الخير او الشر بل تتعلق ارادة الله بارادة الانسان قال تعالى « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ١٣ / الرعد ، واللوح المحفوظ . والكتابة التي يعبر الله عنها في آيات كثيرة هي تعبير عن علم الله الازلي

هذا هو معنى القضاء والقدر وعلاقة افعال الانسان بذلك فيما افهمه . وهو شيء غير بحث الهدى والضلال ومشيئة الله وصفاته .

٣ ـ ٨ اثر فكرة القضاء والقدر في حياة الفرد والمجتمع :ـ

لقد عرف المسلمون ان الله سبحانه هو الخالق للافعال المتصرف بالكون بيده مقاليد الامور ، وان بيده النصر والحياة والموت والخلق والايجاد ، وانه اعطى الانسان المقدرة على الطاعة او العصيان وعلى الكفر والايمان ، وانه جعل له التأثير في افعاله وتوجيه ميوله ، بعد ان بين له طريق الهدى والضلال والخير والشر ، بالوحي المنزل متلوا بالقرآن او غـير متلو بالسنة النبوية ، واعطى الانسان التمييز في عقله ، والفهم والبصيرة يستنبط الاحكام الشرعية لما يجـد من الامور لكي يوجه عمله باوامر الله سبحانه ، ورتب على ذلك الثواب والعقاب . ولم يـكن ذلك عائقا لهم عن ممارسة الاعمال ، والتقدم في الحياة ، والابداع فيها وعمران الكون ، واكتشاف الاشياء ، ونشر الدعوة . ولم يتواكلوا ويهملوا تواكلا وكسلا .

وعقيدة القضاء والقدر التي تفهم معنى القضاء فيما هو من فعل الله المتفرد بـه والقدر فيما هو من خلق الله الاشياء بكيفية مخصوصه . وحرية الانسان في اختيار افعاله وفق مـا امره الله ومحاسبته على ممارسة الخير بالخير والشر بالشر ، وان الله سبحانه ترك العبد يفعل الفعل ويكون هو المؤثر فيه من غير ان يكون لارادته ولا لعلمه اجبار ، يجعل المسلم ينطلق في دنياه ساعياً لرزقه وبناء حياته ، واكتساب علمه ، مجـدا دؤوبا لا يعرف الكسل ولا التواكل وانما يتوكل على الله يستلهم منه الرشد والتوفيق قال تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » / وقال « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » / لان الانسان حيثما يسير او يعمل

فهو في قضاء الله وتحت قبضة يده ، وانه المحاسب له على عمل الخير ، فينطلق اذن يبتغي رضوان الله في كل اعماله فيكون مؤثرا فاعلا في هذه الحياة .

والامة التي تفهم معنى القضاء والقدر وفعل الانسان ذلك الفهم تأتي بالعجائب ، تنفض عنها غبار الكسل ، والذل والخمول ، وتجاهد وتحرر نفسها وارضها ومجتمعها من ادران العبودية والفساد والضلال . مستهدية بما امر الله ، وتاركة ما نهى عنه ، ومعتمدة عليه ، ومؤمنة بأن النصر والقوة منه ، وان عليها العمل والجد ، وان الاسباب مرتبطة بالمسببات ، فلا نصر من غير اعداد وتضحية وجهاد ، ولا رفعة من غير عمل وبناء وجد ، ولا نهضة من غير ايمان بالله وفكر مستنير .

ولذلك كان تاثير عقيدة القضاء والقدر في امةالاسلام عظيما ، وكانت الفرية التي يريد ان يلصقها اعداء المسلمين اليوم بان تأخرهم ناتج عن عقيدة القضاء والقدر فرية باطلة ، فالانسان مؤمن بانه لن يصيبه الا ما علمه الله ، وان الحياة والموت بيده ، فلم يكن تاخرهم الا حين لم يعملوا بما يتوجبه الايمان الصحيح بالقضاء والقدر خيرهما وشرهما منه سبحانه ، ومن سوء فهمهم لهما وظنهم ان كل شيء يجرى بذاته شئنا او ابينا دون ان يكون لنا تأثير في الافعال وارادة واختيار (١) . *

---

(١) انظر الفصل الحادى عشر من (الاسلام الصراط المستقيم) كتابة محمد راشدى ٢٦٠/٢ نشر دار الحياة ببيروت و ٣٠٤/١ من الكتاب نفسه من مقال لابي العلا عفيفي .

* وقد كتب هذا البحث ضمن بحث موسع لمعهد التأهيل التربوي .